الكتاب: النبي ومستقبل الدعوة
المؤلف: مروان خليفات
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: من مؤلفات المستبصرين
تحقيق:
الطبعة: الأولى
سنة الطبع: ١٤٢٠
المطبعة:
الناشر: مركز الأبحاث العقائدية - قم - ايران
ردمك: ٩٦٤-٣١٩-١٩٠-٧
ملاحظات:

سلسلة الرحلة إلى الثقلين (١)
النبي ومستقبل الدعوة
تأليف:
مروان خليفات
مركز الأبحاث العقائدية

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والصلاة على خاتم
المرسلين محمد وآله الغر الميامين
من الثوابت المسلمة في عملية البناء الحضاري القويم استناد الأمة إلى قيمها السليمة ومبادئها الأصلية، الأمر الذي يمنحها الإرادة الصلبة والعزم الأكيد في التصدي لمختلف التحديات والتهديدات التي تروم نخر كيانها وزلزلة وجودها عبر سلسلة من الأفكار المنحرفة والآثار الضالة باستخدام أرقى وسائل التقنية الحديثة.
وإن أنصفنا المقام حقه بعد مزيد من الدقة والتأمل نلحظ أن المرجعية الدينية المباركة كانت ولا زالت هي المنبع الأصيل والملاذ المطمئن لقاصدي الحقيقة ومراتبها الرفيعة، كيف؟! وهي التي تعكس تعاليم الدين الحنيف وقيمه المقدسة المستقاة من مدرسة آل العصمة والطهارة (عليهم السلام) بأبهى صورها وأجلى مصاديقها.
هذا، وكانت مرجعية سماحة آية الله العظمى السيد علي السيستاني – مد ظله – هي السباقة دوما في مضمار الذب عن حمى العقيدة ومفاهيمها الرصينة، فخطت بذلك خطوات مؤثرة والتزمت برامج ومشاريع قطفت وستقطف أينع الثمار بحوله تعالى.
ومركز الأبحاث العقائدية هو واحد من المشاريع المباركة الذي

أسس لأجل نصرة مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وتعاليمه الرفيعة.
ولهذا المركز قسم خاص يهتم بمعتنقي مذهب أهل البيت (عليهم السلام) على مختلف الجهات، التي منها ترجمة ما تجود به أقلامهم وأفكارهم من نتاجات وآثار – حيث تحكي بوضوح عظمة نعمة الولاء التي من الله سبحانه وتعالى بها عليهم – إلى مطبوعات توزع في شتى أرجاء العالم.
وهذا المؤلف " النبي ومستقبل الدعوة " الذي يصدر ضمن " سلسلة الرحلة إلى الثقلين " مصداق حي وأثر عملي بارز يؤكد صحة هذا المدعى.
على أن الجهود مستمرة في تقديم يد العون والدعم قدر المكنة لكل معتنقي المذهب الحق بشتى الطرق والأساليب، مضافا إلى استقراء واستقصاء سيرة الماضين منهم والمعاصرين كي يتسنى جمعها في كتاب تحت عنوان " التعريف بمعتنقي مذهب أهل البيت ".
سائلينه تبارك وتعالى أن يتقبل هذا القليل
بوافر لطفه وعنايته
مركز الأبحاث العقائدية
فارس الحسون

مقدمة المؤلف:

رحلتي

كانت انطلاقتي مع رزية الخميس، وهي ليست رزية يوم يسمى الخميس لأن أثرها ما زال للآن، ولن يزول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على فراش مرضه، وفي لحظات الوداع الأخيرة يتوجه إلى أصحابه الذين امتلأت غرفته بهم ويقول (صلى الله عليه وآله وسلم): " ائتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا " (١) ومن الذي لا يرضى بكلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ ومن لا يحب هذه الهدية من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ إنه الأمان من الضلال والتيه،

ولكن ماذا جرى؟ فها هي الأمة منذ ذلك اليوم تائهة ومنقسمة إلى فرق ومذاهب، وقد صارت لعبة بيد الأعداء

. فماذا حدث يا ترى حتى ضلت الأمة؟ ومن الذي حال دون كتابة ذلك الكتاب؟

في صحيح البخاري، تكلم عمر بن الخطاب، فقال: " إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله " (٢) وفي رواية أخرى:

---

(١) " صحيح البخاري " كتاب المغازي، باب مرض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ووفاته.

(٢) صحيح البخاري) (كتاب المرض، باب قول المريض قوموا عني.

لقد فهم عمر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان سيكتب لهم وصية بكتاب الله وشئ آخر اقترن معه دائما في توصياته (صلى الله عليه وآله وسلم)، لهذا قال فورا: " حسبنا كتاب الله " ومعناه يكفينا كتاب الله ولا نريد ذاك الشئ المقارن له، وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرن كتاب الله مع أهل بيته دائما ويوصي الأمة باتباعهما معا وسيمر علينا هذا خلال البحث، ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتابنا: " وركبت السفينة ".

" فقالوا: ما شأنه أهجر؟! استفهموه فذهبوا يردون عليه، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم):
" دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه " (١).
وهكذا ضلت الأمة، وبدأ الانحراف فيها من يوم الخميس ذاك حين رفض عمر وبعض الصحابة طلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).
وبالرغم من أنني كنت متعلقا ببعض الشخصيات إلا أن هذه الحادثة أوقفتني، وصدمت عندما بحثت عنها في صحيح البخاري ووجدتها وقد دفعتني لأراجع موروثاتي، وفعلا كان حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) " ستفترق أمتي
إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة في الجنة " (٢) يدور بانتباهة عنيفة في خلدي.
وهذه الواحدة الناجية أشار لها (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: " لا تزال طائفة من أمتي
ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون " (٣).
وحين ضممت حديث " إني تارك فيكم الخليفتين من بعدي، كتاب الله

---

(١) " صحيح البخاري " كتاب المغازي، باب مرض النبي ووفاته.
(٢) راجع الحديث مثلا في " مستدرك الحاكم " ١ / ١٢٨، " مسند أحمد " ٢ / ٣٣٢.
(٣) " صحيح البخاري " كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ح ٧٣١١.

وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض " (١).
وحديث: " مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك " (٢).
انكشف لي الأمر واضحا كالشمس. وكان لي صديق متبع لأهل البيت (عليهم السلام) يشعر بأمري، وكنت قد خجلت من مواجهته، فلي كانت معه جولات وجولات في البحث والنقاش، وكثيرا ما أبت نفسي المعاندة الاعتراف له، ولكن في النهاية وبعد صراع مرير مع ذاتي انضممت لصديقي دون أن أشعره بذلك، وعندما صارحته بما صرت إليه - وبنفس منكسرة - فرح ولم يبد أية شماتة أو سخرية كنت أتوقعهما، وقال: لقد كنت أدعو لك في كل صلاة.
وهكذا استمرت أمطار رحمة الله بالانهمار علي حتى غمرتني، وشعرت بأنني في عالم آخر، في وسط سفينة نوح، تلك السفينة التي ما زالت تسير في أبحر الحياة محصنة بالنجاة والأمان.
ومن وسط هذه السفينة أطل عليك قارئ العزيز بهذا البحث لعلنا نرى قسما من وجه الحقيقة.
١ - رمضان - ١٤١٩ ه أربد - الأردن
مروان خليفات

---

(١) وهذا ما يعرف بحديث الثقلين وله ألفاظ أخرى، سيأتي بعضها، والرواية السابقة صححها الألباني.
(٢) هذا الحديث صحيح وسيأتي في ثنايا البحث.

توطئة:
لقد امتازت رسالة نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) عن سائر الرسالات السماوية بميزات
عدة.
فهي خاتمة الرسالات، قال تعالى: (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) (١).
وامتازت بأنها عامة وموجهة لجميع الناس، قال تعالى: (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) (٢) و (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (٣) وباقية إلى يوم القيامة.
ومن الطبيعي فإن رسالة كهذه لا بد أن تنظر لها السماء نظرة خاصة، فتعد مشروعا يحفظ بقاءها وسلامتها من التحريف النصي والدلالي بعد موت صاحبها (صلى الله عليه وآله وسلم)، ويمكن التعرف على طبيعة هذا المشروع الإلهي وتكوين
مفرداته من خلال الرجوع إلى سنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الفعلية والقولية.
لا شك أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ميت لكن رسالته باقية، إذن فمن يديم مسيرته
المباركة؟ كيف يقيم الله حجته على الناس ويأخذ بيدهم نحو الكمال؟

---

(١) الليل: ١٢.
(٢) الأعراف: ١٥٨.
(٣) الأنبياء: ١٠٧.

وبعبارة أوضح: ما هي حقيقة المشروع الإلهي الذي أعد لهداية الإنسان بعد ختم النبوة؟
ما موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مستقبل الإسلام؟ فهل اتخذ (صلى الله عليه وآله وسلم) الترتيبات اللازمة لحفظ رسالته وضمان انتشارها؟
ما موقفه (صلى الله عليه وآله وسلم) من الكتاب والسنة وهما عهد الله إلى خلقه؟
إن الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها قد يكون لها تأثير كبير على حياة الإنسان.
ولو عرضت هذه الأسئلة على المدارس والفرق الإسلامية لكانت أجوبتها متوافقة مع انتماءاتها المذهبية، وهذه إحدى مشاكلنا، فنحن ننتمي ثم نجيب ولو على حساب الحقيقة.
ولا أطيل عليك عزيزي القارئ فقد حاولنا قدر الإمكان تجلية تلك الصورة وإبراز حقيقتها المستوحاة من القرآن الكريم والسنة الشريفة.
أجل إن هناك نظريات مختلفة حول موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مستقبل دعوته، وأشهر هذه النظريات اثنتان.

النظرية الأولى:
وهذه النظرية تمثل رأي شريحة كبيرة من المسلمين وهم أهل السنة – أشاعرة وسلفية – ويتضح موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مستقبل دعوته في الأسطر
التالية.
موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من القرآن
القرآن دستور الله ومعجزة نبيه الخالدة، فهل جمعه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في كتاب
خاص ليحفظه من الضياع؟
إن الناظر في كتب الحديث يرى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أوكل أمر القرآن إلى
حفظ الصحابة وجمعهم له، فقد كان البعض يحفظ ما نزل منه، وكان آخرون يكتبون بعض سوره في الصحف، ولا تذكر المصادر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اتخذ
موقفا حاسما بشأن القرآن فقام بجمعه حسب ترتيب نزوله في كتاب خاص.
أجل، هناك قسم من العلماء يذهب إلى أن القرآن جمع على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومنهم: الزرقاني، الزركشي، الباقلاني وغيرهم.
إلا أن هذا القول يصطدم بروايات جمع القرآن في عهد أبي بكر، فإذا كان القرآن مجموعا عند بعض الصحابة فلماذا يأمر أبو بكر زيد بن ثابت بجمعه؟

أخرج البخاري عن زيد بن ثابت، قال: " أرسل إلى أبو بكر، مقتل (١) أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر (رضي الله عنه): إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى: أن تأمر بجمع القرآن.

قلت لعمر: كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟!

قال عمر: هذا والله خير.

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر...

قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

قال: هو والله خير.

فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب، واللخاف (٢)، وصدور الرجال..، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي

---

(١) أي: بعد مقتلهم.

(٢) العسب: جمع عسيب وهو جريدة من النخل مستقيمة.

واللخاف: حجارة بيض عريضة رقاق، واحدتها لخفة، راجع " لسان العرب " ٩ / ١٩٧ و ١٢ / ٢٦١.

خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره! لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حتى خاتمة براءة.. فكانت الصحف عند أبي بكر، حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر (رضي الله عنه) " (١).

إن المتأمل في قول أبي بكر لعمر: " كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) "، وقول زيد لهما: " كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله "

يتبين له بوضوح أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يجمع القرآن وإنما جمعه زيد بن ثابت بأمر

أبي بكر الذي أقنعه عمر بذلك، وقد جمعه زيد من الصدور والسطور.

قال ابن جزي: " وكان القرآن على عهد رسول الله متفرقا في الصحف وفي صدور الرجال " (٢).

موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من السنة

إن الروايات متضاربة حول موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من سنته، وأشهر نص

يطالعنا رواية النهي عن الكتابة:

أخرج مسلم: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: " لا تكتبوا عني شيئا إلا القرآن،

فمن كتب عني شيئا غير القرآن فليمحه " (٣).

هذا نص عام في النهي ووردت روايات في الإذن بالكتابة للبعض كابن

---

(١) " صحيح البخاري " كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن ٦ / ٣١٤.
إن هذه الرواية وروايات أخرى تدعي أن القرآن قد كتب بشهادة شاهدين، وهذه والله أكبر ضربة للقرآن، ومعنى ذلك أن القرآن أخبار آحاد.

(٢) التسهيل " ١٠ / ٦.

(٣) " صحيح مسلم " كتاب الزهد، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم.

عمر (١) وأبي شاة (٢).
وعلماء القوم مختلفون حول نسخ النهي في الحديث السابق، فمنهم من يقول بالنسخ، ومنهم من لا يلتزم بذلك (٣).
وبناءا على ما سبق فإن موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من سنته أنه تركها مفرقة في الصدور دون جمع إن لم نقل أنه نهى عن تدوينها، وهو موقف بطبيعة الحال سلبي.
ومما سبق يظهر لنا تأكيد أهل السنة على أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ترك القرآن مفرقا في الصدور والسطور ولم يجمعه في كتاب واحد، ونهى عن تدوين سنته أو تركها في صدور الرجال دون جمع أيضا.
أما عن الحوادث المستقبلية المستجدة التي لا حكم لها في الكتاب والسنة، فلا نجد أي نص – عندهم – يشير إلى كيفية التعامل معها.

---

(١) راجع " مستدرك الحاكم " ١ / ١٠٥ – ١٠٦، " مسند أحمد " ٢ / ١٦٢.
(٢) صحيح البخاري " ١ / ٤٠ – ٤١.
(٣) كالمحدث رشيد رضا حيث قال: " لو فرضنا أن بين أحاديث النهي عن الكتابة والإذن بها تعارضا يصح أن يكون به أحدهما ناسخا للآخر، لكان لنا أن نستدل على كون النهي هو المتأخر بأمرين... " راجع " المنار " ١٠ / ٧٦٦.

مناقشة النظرية الأولى:
إن الناظر للوهلة الأولى في هذه النظرية يضع حولها مجموعة أسئلة وإشكالات، فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مبعوث للعالمين، والإسلام هو خاتم الأديان،
وظهوره على باقي الأديان أمر حتمي لا مفر منه، قال تعالى: (ليظهره على الدين كله) (١)، والقرآن باق إلى يوم القيامة فهو أبدي ولكل الناس، فكيف يترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) معجزته الخالدة في صدور صحابته وفي العسب واللخاف؟
إن الصحابة راحلون عما قريب، وستأتي الأجيال تترى وتترى، فأين ستجد معجزة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لتؤمن به ولتعمل بقرآنه؟ هل يبحثون عنه في
صدور الصحابة؟ فالصحابة أموات، ولا يمكن القول أنه كان في ذهن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقوم كل جيل بنقل القرآن عن الجيل الذي سبقه مشافهة، إذ
لا دليل على هذا، وهو يؤدي إلى ضياع القرآن واندراس آياته، وقد وجدنا عبد الله بن مسعود ينكر المعوذتين من القرآن (٢).
ولو افترضنا بقاء أمر القرآن كما هو عليه من عدم الجمع، لجاء التابعون وأنكروا بعض السور، تبعا لابن مسعود، وهذا الإنكار قد يحدث في كل

---

(١) الفتح: ٢٨.
(٢) " فتح الباري " ٨ / ٦٠٤ وصحح ابن حجر ذلك.

جيل، وقد يثور خلاف بين العلماء حول سور القرآن، بعد فقدان الذوق الأدبي لدى الكثير منهم وعدم الإدراك الحقيقي لإعجاز القرآن البياني.
وهكذا سيكون مصير السنة النبوية التي تبين مجمل القرآن وتخصص عامه وتقيد مطلقه، بل إن أمر السنة في هذه النظرية أخطر من القرآن، فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في تصورهم لم يكتف بعدم كتابة السنة بل نهى – على رأي البعض منهم – عن تدوينها، وعلى هذا فإن تخطيط النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) المستقبلي هو أن تروى السنة مشافهة ولا تكتب، ولا يمكن تصور هذا، فإذا تصورناه في جيل التابعين وتابعي التابعين والجيل الذي بعدهم... فكيف نتصوره الآن؟ عمن نأخذ السنة؟ كم سيبلغ طول السند؟ هل سيتصل السند بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خلال هذه القرون الأربعة عشر أم لا؟ كيف سيتم الوثوق بهذا العدد الهائل من الرواة؟ وأي كتاب سيتكفل ببيان أحوالهم لنعرف صدقهم من كذبهم؟... وقد تأتي بعدنا أجيال وأجيال وتتضاعف المسافة بينهم وبين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهنا ألا تزداد المشكلة تعقيدا على تعقيد؟! ومن المعلوم أن أنهار الوضع في الحديث النبوي قد فاضت في القرنين الأولين، ولقد وصف الدارقطني هذه الحالة الرهيبة بقوله: " إن الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود "!!
وقال حماد بن زيد: " وضعت الزنادقة على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أربعة عشر ألف حديث ".
وحين أخذ ابن أبي العوجاء الزنديق ليضرب عنقه قال: " لقد وضعت

فيكم أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام " (١).
ومع ملاحظة هذا الوضع في القرون الأولى فكيف سيكون الوضع في القرون اللاحقة؟
إن عدم كتابة السنة يؤذن بضياعها وتحريفها مع مرور الزمن، يقول ابن الصلاح: " ثم إنه زال ذلك الخلاف - أي هل تكتب السنة أم لا - وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك وإباحته، ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الأعصر الأخيرة " (٢).
أجل هذه هي النتيجة، وهي توحي بأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد أخطأ -
والعياذ بالله - بتركه كتابة السنة، وبعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) أدرك العلماء والأمراء
خطورة هذا النهي فخالفوه وأباحوا كتابتها.
كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله في المدينة أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم: " أنظر ما كان من حديث رسول الله أو سنته فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء " (٣).
عجبا، فعمر بن الخطاب يخاف من ضياع القرآن، فيأمر أبا بكر بجمعه، ويخاف عمر بن عبد العزيز من ضياع السنة فيأمر بكتابتها، فهل كان العمران أشد حرصا على الإسلام من نبي الرحمة (صلى الله عليه وآله وسلم)؟
لقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرأ مستقبل الإسلام لصحابته وقد كذب عليه في
حياته وتنبأ بأنه ستكثر عليه الكذابة، فقال: " من تعمد على كذبا فليتبوأ

---

(١) " لسان الميزان " ٤ / ٤٣١.
(٢) " مقدمة ابن الصلاح " ٣٠٢.
(٣) " تدريب الراوي " ١ / ٤٠.

مقعده من النار " (١).
فكيف لا يضع الضمانات – بتدوين سنته – لقطع الطريق على هؤلاء الكذبة؟
يقول أبو الحسن الندوي السلفي: " ثم إن الحديث زاخر بالحياة... ولم يزل باعثا على محاربة الفساد والبدع وحسبة المجتمع، ولم يزل يظهر بتأثيره في كل عصر وبلد من رفع راية الاصلاح والتجديد، وحارب البدع والخرافات والعادات الجاهلية، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح، لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية، وكان لا بد من تقييده وتسجيله ونشره " (٢).
إذا كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية، وكان لا بد من تقييده وتسجيله ونشره، فلماذا لم يقم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بتقييده وتسجيله؟!
ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: " ألا وإني أشهد لسمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: إذا انقطع شسع أحدكم فلا يمش في الأخرى حتى يصلحها " (٣).
فهل يمكن أن يصدق العقل السوي أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يهتم بانقطاع الشسع ويترك سنته دون تقييد وتسجيل؟!
كان حمورابي شخصا عاديا، ووضع مجموعة قوانين وقبل وفاته كانت

---

(١) " صحيح البخاري " كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).
(٢) " مع رجال الفكر والدعوة " ٧٨.
(٣) " صحيح مسلم " كتاب اللباس، باب استحباب لبس النعل في اليمنى أولا.

مدونة حتى صارت مرجعا بعده لا خلاف في صحتها، وحمورابي ليس نبيا وليس مبعوثا لقومه ولا لجميع البشر، لكنه اتخذ التحوطات اللازمة لحفظ تلك القوانين، فهل كان حمورابي أكمل وأبعد نظرا من سيد الخلق (صلى الله عليه وآله وسلم)؟

وفي العصر الحاضر لا نجد دولة إلا ولها دستور مدون في كتاب، فهل هذه الدول أكثر حضارة وتنظيرا من دولة الإسلام؟

هذه بعض الإشكالات التي ترد على هذه النظرية.

وقد يرد علينا أصحابها بقولهم: لقد ترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الكتاب والسنة

دون جمع لأنه كان يعلم أنهما سيجمعان مستقبلا فتركهما للأمة.

وهذا ادعاء لا دليل عليه، فقد كان الناس يقرأون في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

(اليوم أكملت لكم دينكم) (١)، فالدين كامل وجاهز كي ينتشر في أرجاء المعمورة، ومن مصاديق هذا الكمال كون الكتاب والسنة مجموعين حتى ينتشرا في البلاد المفتوحة، فالدين كامل قبل أمر عمر لأبي بكر بجمع القرآن، وقبل ولادة الزهري ومالك والبخاري.

وإضافة لهذا، فإن الصحابة – وكل البشر – مكلفون وليسوا مؤلفين، وليس لهم شأن بجمع الكتاب والسنة لأنهما من عند الله وهو الذي أنزلهما وهو الذي تكفل بحفظ كتابه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (٢).

ومع هذا سنواصل السير مع أصحاب هذه النظرية ونفترض أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ترك الكتاب والسنة دون جمع، لعلمه أن سيجمعان مستقبلا.

---

١) المائدة: ٣.

٢) الحجر: ٩.

فهل هذا الافتراض كاف لإقامة الحجة على الناس؟ وكيف سيتم التعامل مع الكتاب والسنة؟ كيف سيعرف الناسخ والمنسوخ، المحكم والمتشابه، الخاص والعام،...؟!

ألا يحتاج القرآن إلى بيان صحيح وترجمة لمعانيه؟ فهل مثل هذا الرأي يتناسب مع كمال الدين وإتمام النعمة؟

إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عند هؤلاء لم يضع برنامجا متكاملا لكيفية التعامل مع الكتاب والسنة، وهذا ما لا يمكن تصديقه، فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) ذاك الإنسان العظيم ذو النظر الثاقب الذي يرفض أن يرى بعين نبوته المستقبل القاتم للأمة وتشتتها وتناحرها، وهو ذلك الحريص الرحيم الذي وصفه الله بأروع وصف: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) (١).

فكيف نصدق أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بين كيفية دخول الحمام وآدابه الأخرى ولم يشر إلى مفتاح التعامل مع الكتاب والسنة؟

إن عدم وجود برنامج مستقبلي يحفظ الكتاب والسنة نصا ودلالة مدعاة لاختلاف الأمة وتفرقها.

روي عن عبد الوارث بن سعيد أنه قال: " قدمت مكة فألفيت بها أبا حنيفة، فقلت له: ما تقول في رجل باع بيعا وشرط شرطا؟ فقال: البيع باطل والشرط باطل.

فأتيت ابن أبي ليلى فسألته عن ذلك، فقال: البيع جائز والشرط باطل.

---

(١) التوبة: ١٢٨

فأتيت ابن شبرمة فسألته عن ذلك، فقال: البيع جائز والشرط جائز.
فقلت في نفسي: سبحان الله! ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون على مسألة!
فعدت إلى أبي حنيفة فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ما قالا
لك، حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
عن بيع وشرط، فالبيع باطل والشرط باطل.
فعدت إلى ابن أبي ليلى فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ما قالا
لك، حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني
رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن اشتري بريرة فأعتقها، البيع جائز والشرط باطل.
قال: فعدت إلى ابن شبرمة فأخبرته بما قال صاحباه، فقال: ما أدري ما
قالا لك، حدثني مسعد بن كداح بن محارب بن دثار عن جابر قال: بعث
النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعيرا وشرط حملانه إلى المدينة البيع جائز والشرط جائز! " (١).
وبعد غض النظر عن أمر الكتاب والسنة وجمعهما يعرض لنا إشكال آخر
وهو: هل أشار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الحوادث المستجدة وكيفية استنباط
أحكامها؟
ولربما سيجاب على ذلك بأن هناك القياس والاستحسان وغيرهما من
مصادر التشريع، فالعلماء يرجعون إلى هذه المصادر لاستنباط أحكام
المسائل المستحدثة
ويبقى إشكالنا في محله، فمن أين اكتسبت هذه المصادر الصفة الشرعية

---

(١) " التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين " للبطليوسي ١١٥ - ١١٧.

وصار يعتمد عليها كالكتاب والسنة؟ فهي لم ترد على لسان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
ولم ينزلها الله على نبيه ولم يقس (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يستحسن، بل كان كما قال الله
(إن هو إلا وحي يوحى) (١)، ولم يكن (صلى الله عليه وآله وسلم) يرى لرأيه واجتهاده دورا في
التشريع، قال تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) (٢).
فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يحكم بما يريه الله ولم يقل بما رأيته وبما قسته وبما استحسنته.
والملاحظ أن مصادر التشريع هذه محل خلاف بين العلماء، فتجد الحنفية قد أفرطوا في الاعتماد على القياس، بعكس الحنابلة الذين لم يعتمدوه إلا قليلا، أما أهل الظاهر فقد أنكروه مطلقا، وأنكر الشافعية والمالكية المصالح المرسلة، وأنكر الشافعي الاستحسان فقد ورد عنه: " من استحسن فقد شرع " (٣).
ولنفترض وجود القياس والاستحسان... من ضمن مصادر التشريع،
ولكن ألا تحتاج إلى بيان كامل لمعالمها وكيفية تطبيقها عمليا؟ وقد تقرر أصوليا: أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، ووقت الحاجة متحقق بموت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يبين معالم هذه المصادر ولم يطبق
بعض الموارد عمليا.
إن نسبة هذه الرؤية السلبية لمستقبل الإسلام إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت ثغرة

---

(١) النجم: ٤.
(٢) النساء: ١٠٥.
(٣) جميع كتب الأصول: مبحث الاستحسان.

نفذ منها بعض الكتاب وطعنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والإسلام.
قال إبراهيم فوزي: " كان المجتمع الاسلامي على توالي العصور خاليا من السلطة التشريعية اللازمة التي تشرع للناس على الدوام حاجاتهم الزمنية المستجدة " (١).
وقال محمود أبو رية: " ولو أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد عني بكتابة الحديث،
كما عني بكتابة القرآن، وعني الصحابة من بعده بكتابته، لجاءت أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كلها متواترة في لفظها ومعناها، وليس شئ منها اسمه
صحيح، ولا شئ اسمه حسن، ولا شئ اسمه ضعيف، ولا غير ذلك من الأسماء التي اخترعوها، مما لم يكن معروفا زمن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وصحابته،
وبذلك كان يرتفع الخلاف في حقيقته، وينحط عن كاهل العلماء أعباء البحث عن صحته، ووضع المؤلفات الكثيرة التي صنفت في علوم الحديث والبحث عن أحوال الرواة من حيث العدالة والضبط والجرح والتعديل وغير ذلك، وكان فقهاء الدين يسيرون على نهج واحد، لا اختلاف بينهم في أصله ولا تباين... إذ تكون أدلتهم كلها متواترة كالقرآن الكريم، فلا يأخذون بما سموه الظن الغالب، الذي فتح أبواب الخلاف وفرق صفوف الأمة وجعلها مذاهب وفرقا ومما لا يزال أمره بينهم إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم " (٢).

---

(١) " تدوين السنة " ١٥.
(٢) " أضواء على السنة المحمدية " ٢١٨.

الحجة الأخيرة
يذهب البعض إلى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جعل أصحابه مرجعية للأجيال من
بعده، بحيث يقومون بنقل القرآن والسنة لمن بعدهم، وتحيط هذا القول
إشكالات كثيرة نشير لواحد منها (١):
أخرج البخاري عن أبي وائل، قال: قال عبد الله: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): " أنا
فرطكم على الحوض، ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم
اختلجوا دوني، فأقول: أي رب أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا
بعدك " (٢).
وأخرج مسلم عن عبد الله، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): " أنا فرطكم على
الحوض ولأنازعن أقواما ثم لأغلبن عليهم، فأقول: يا رب! أصحابي،
أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " (٣).
وفي رواية أخرى للبخاري يقال للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): "... إنهم ارتدوا على
أدبارهم القهقرى " (٤).
هذه الأحاديث صريحة في دخول جماعات من الصحابة في النار، وقد
فسرها المفسرون بالمنافقين والمرتدين، وهذا التفسير مخالف لمعطيات

(*) (١) ومن أراد الفصيل فليرجع إلى كتابنا " وركبت السفينة " فصل: إشكالات على مرجعية الصحابة، ١٨٩ - ٢٣٦.
(٢) " البخاري " كتاب الفتن ٩ / ٨٣، وكتاب الرقاق، باب في الحوض.
(٣) " مسلم " كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا وصفاته.
(٤) " البخاري " كتاب الرقاق، باب في الحوض. (*)

الأحاديث.
فعلة دخول الصحابة في النار هي الأحداث والارتداد بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)،
والمنافق لا يرتد لأنه لم يسلم أصلا وإنما تظاهر بالاسلام، وكذلك لا يذكر لنا التاريخ أي إحداث للمنافقين بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا أي تحرك
لهم (١)! والقول بأنهم مرتدون، يرد عليه بأن المرتدين لم يحدثوا في دين الله، وقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): " رجال منكم " " أعرفهم ويعرفونني " (٢) دليل على أنهم ممن
كانوا حول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أهل مكة والمدينة، وقوله " أقواما " دليل على
كثرتهم، وهناك رواية تنص على دخول الصحابة النار ولا يبقى منهم إلا القليل:
عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): " بينما أنا قائم فإذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، قال: هلم، قلت: أين؟ قال: إلى النار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم " (٣).
قال ابن الأثير: " الهمل: ضوال الإبل، واحدها هامل، أي أن الناجي منهم قليل في قلة النعم الضالة " (٤).

---

(١) وهذا أمر ينبغي التأمل فيه مليا، فلماذا توقفت مؤامرات المنافقين؟ هل كان أبو بكر وعمر أذكى من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأوقفاهم عند حدهم وكشفاهم أم أن المنافقين حققوا أغراضهم بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فسكتوا؟!!
(٢) " البخاري " كتاب الرقاق، باب في الحوض.
(٣) المصدر السابق.
(٤) " النهاية في غريب الحديث " ٥ / ٢٧٤، وكذا في " لسان العرب " ١٥ / ١٣٥، وقريب منه في " فتح الباري " ١١ / ٣٩٢.

فبعد هذا كيف يمكن قبولهم مرجعية يحفظون لنا الكتاب والسنة
وينقلونهما إلى الناس؟ والغريب أنهم نسبوا أمر اختيارهم إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
مع أنه يقول: " فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم ".
ومما سبق يظهر لنا ضعف هذه النظرية التي تزعم بترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
القرآن مفرقا في الصحف والصدور وعدم جمعه للسنة والنهي عن كتابتها
وإرجاع الناس إلى صحابته. وحاشا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذا الموقف السلبي.

النظرية الثانية:
موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الايجابي
إن موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الايجابي من دعوته يمر بثلاث مراحل:
المرحلة الأولى: جمع القرآن
حين بدأ نزول القرآن شرع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بتدوينه، حيث كان يملي الآيات
النازلة على علي بن أبي طالب (عليه السلام) فيكتبها بخطه:
قال الإمام علي (عليه السلام) في هذا الشأن: " فما نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) آية
من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها علي فكتبتها بخطي " (١).
واستمرت عملية جمع القرآن في السطور حتى آخر آية نزلت على
النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبتدوين آخر آية كان القرآن مجموعا في كتاب واحد، وقد
كان الصحابة يدونون بعض السور ولكنه كان تدوينا ناقصا مقارنة بهذا التدوين.
إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قيامه بهذا العمل يكون قد وضع أول الضمانات لحفظ
دعوته من الضياع والنسيان، ولكن هذا ليس كافيا ولا يستطيع الناس
معرفة الإسلام من خلال القرآن وحده، لهذا قام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بخطوة أخرى.

---

(١) " الأصول من الكافي "، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث.

المرحلة الثانية: تدوين السنة
السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وقد شرع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
بتدوينها تزامنا مع جمع القرآن، وكان تدوين السنة عملا مشتركا بين
النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي بن أبي طالب (عليه السلام)، حيث كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يملي وعلي (عليه السلام)
يكتب، وبوفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت السنة مجموعة في كتاب أو عدة كتب وقد
أودعها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أهل بيته (عليهم السلام) فكانت عند علي بن أبي طالب (عليه السلام).
قالت أم سلمة: " دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأديم وعلي بن أبي طالب عنده،
فلم يزل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يملي وعلي يكتب حتى ملأ بطن الأديم وظهره
وأكارعه " (١).
وعرف الكتاب الذي يحوي السنة بالجامعة أو صحيفة علي (عليه السلام):
قال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) (٢) لأحد أصحابه وهو أبو نصير: " يا أبا محمد وإن عندنا (الجامعة) وما يدريهم ما الجامعة!
قال: قلت جعلت فداك، وما الجامعة؟
قال: صحيفة طولها سبعون ذراعا بذراع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإملائه من
فلق فيه، وخط علي بيمينه، فيها كل حلال وحرام، وكل شئ يحتاج إليه
الناس حتى الأرش في الخدش " (٣).

---

(١) " المحدث الفاصل " للرامهرمزي ٦٠١.
(٢) هو الإمام السادس من أئمة آل البيت (عليهم السلام).
(٣) " الوافي " للفيض الكاشاني.

وهذا الكتاب الذي عرف بالجامعة من أكبر الكتب التي كانت بحوزة آل البيت (عليهم السلام) (١).

ونقل عنها غير واحد من علماء أهل السنة أمثال:

- ابن سعد في آخر كتابه الجامع.
- البخاري، ذكرها في ثمانية مواضع من (الصحيح)، ورواها بثمان طرق.
- الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب، جمع ما نقل عنها في كتاب مستقل عنونه ب (صحيفة علي بن أبي طالب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): دراسة توثيقية فقهية " (٢).

وبالرغم من ذكر الكتب السنية لصحيفة علي (عليه السلام) إلا أنها لم تعطها حقها من البيان، بل قد يكون هذا البيان اليسير لصحيفة علي (عليه السلام) فيه ظلم وتزوير لأسباب سياسية وأخرى مذهبية، ولنأخذ هذه الرواية التي رواها البخاري ونقف عندها قليلا:

أخرج البخاري عن أبي جحيفة، قال: " قلت لعلي (عليه السلام): هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل، أو ما في هذه الصحيفة.

قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟

قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر " (٣).

---

(١) وقد يقال: ولماذا لم يخرج أئمة آل البيت (عليهم السلام) هذا الكتاب ليستفيد منه المسلمون؟

والجواب: أن الأمة هي السبب إذ نحتهم عن مركزهم الذي جعلهم الله فيه كما سيأتي.

(٢) " تاريخ التشريع الاسلامي " للدكتور عبد الهادي الفضلي ٣٥.

(٣) " صحيح البخاري " كتاب العلم، باب كتابة العلم.

يفهم من هذه الرواية وروايات أخرى لم نذكرها (١) أنه كان هناك تساؤل يدور بين الناس حول أهمية وحقيقة امتلاك آل البيت (عليهم السلام) كتابا خاصا أم لا، مما دعا أبا جحيفة أن يسأل عليا (عليه السلام): " هل عندكم كتاب؟ " وأجابه الإمام أنه عندهم صحيفة فضلا عن كتاب الله.

وقد وصفت الرواية الصحيفة بشكل فيه امتهان وتنقيص لأمير المؤمنين (عليه السلام).

فلماذا يحمل علي (عليه السلام) صحيفة فيها هذه المسائل الثلاث؟ وما الحكمة من ذلك؟ والواقع أنه كانت عنده (عليه السلام) صحيفة كبيرة.

وفي أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) وصف دقيق لهذه الصحيفة:

روى أبو الحسن ابن بابويه، بسنده، عن الإمام الباقر (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام)،

قال: " قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأمير المؤمنين (عليه السلام): أكتب ما أملي عليك.

فقال: يا نبي الله، وتخاف على النسيان؟

فقال: لست أخاف عليك النسيان، وقد دعوت الله لك أن يحفظك ولا ينسيك، ولكن، أكتب لشركائك.

قال: قلت: ومن شركائي، يا نبي الله؟

قال: الأئمة من ولدك... " (٢).

---

(١) راجع " الرحلة إلى طلب الحديث " للخطيب البغدادي.

(٢) " تدوين السنة الشريفة " للسيد محمد رضا الجلالي ٧٣ - ٧٤، نقلا عن " الإمامة والتبصرة من الحيرة " ١٨٣ ح ٣٨، " بصائر الدرجات " للصفار ١٦٧...

وراجع كتاب السيد الجلالي المذكور لترى تصريحات بعض العلماء بامتلاك أهل البيت (عليهم السلام) صحيفة أو صحفا.

وعن عذافر الصيرفي، قال: " كنت مع الحكم بن عتيبة عند أبي
جعفر (١) (عليه السلام) فجعل يسأله، وكان أبو جعفر (عليه السلام) له مكرما،
فاختلفا في شئ.
فقال أبو جعفر (عليه السلام): يا بني قم فأخرج كتاب
علي (عليه السلام)، فأخرج كتابا مدروجا عظيما، ففتحه، وجعل ينظر حتى أخرج
المسألة.
فقال أبو جعفر (عليه السلام): هذا خط علي (عليه السلام) وإملاء رسول الله (صلى الله
عليه وآله وسلم).
وأقبل على الحكم، وقال: يا أبا محمد اذهب أنت وسلمه وأبو المقدام
حيث شئتم يمينا وشمالا فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل
إليهم جبريل (عليه السلام) " (٢).
قالت أم سلمة: " دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأديم وعلي بن أبي طالب
عنده،
فلم يزل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يملي وعلي يكتب حتى ملأ بطن الأديم
وظهره
وأكارعه " (٣).
وبتدوين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لسنته يكون قد وضع الضمان الثاني لحفظ
دعوته،
ولكن جمع القرآن وتدوين السنة لا يكفي لحفظ الدعوة، فترك القرآن
والسنة بأيدي الأمة مدعاة للاختلاف والفرقة، فالأمة لا تستطيع بيان
القرآن والسنة وتوضيح دلالتهما بيانا قائما على الجزم واليقين، وحديث

---

(١) هو محمد الباقر الإمام الخامس من أئمة آل البيت (عليهم السلام).
(٢) " فهرست النجاشي " ٢ / ٢٦١.
(٣) " المحدث الفاصل " للرامهرمزي ٦٠١، " تدريب الراوي ".

" اختلاف أمتي رحمة " الذي قد يحتج علينا البعض فيه حديث كما يقول الألباني لا أصل له، فقد قال فيه: " لا أصل له، ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند فلم يوفقوا... ".
ونقل المناوي عن السبكي أنه قال: " وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف " وأقره الشيخ زكريا الأنصاري في تعليقه على تفسير البيضاوي (ق ٩٢ / ٢) " (١)، وقال فيه ابن حزم: " باطل مكذوب " (٢).
فكما أن حكم الله كان واحدا في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فكذا يجب أن يكون
فبعد مماته، وكما أن الناس كانوا يرجعون لشخص النبي لحل مشاكلهم ومسائلهم الدينية فكذا يجب أن يخلف النبي من ينوب عنه ويقوم بمهامه – ما عدا الوحي – ويرجع الناس إليه ويبقى حكم الله واحدا، ومن أجل تحقيق هذا الهدف اتخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطوة ثالثة.
المرحلة الثالثة: إعلان مرجعية آل البيت (عليهم السلام)
كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يشعر بدنو أجله وأحس المسلمون بذلك في حجة
الوداع، وكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلم أن الكتاب والسنة دون مبين لهما غير كافيين
لمواصلة المسيرة المباركة التي ابتدأها، لذلك أعلن في حجة الوداع على مرأى ومسمع الألوف من الحجاج مرجعية أهل البيت (٣) (عليهم السلام) الفكرية

---

(١) " سلسلة الأحاديث الضعيفة " ١ / ٧٦ ح ٥٧.
(٢) " الإحكام في أصول الأحكام " ٥ / ٦١.
(٣) ونعني بأهل البيت إضافة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والزهراء (عليها السلام) الأئمة الاثني عشر (عليهم السلام) أولهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) ثم الحسن (عليه السلام) والحسين (عليه السلام)
وآخرهم المهدي المنتظر عجل الله فرجه، لمزيد من التفصيل أنظر كتابنا " وركبت السفينة " ٥٣٣ – ٥٩٦.

والسياسية (١).
وقد نقل لنا مسلم هذه الوصية التاريخية في صحيحه وبعدة طرق: قال زيد بن أرقم – أحد رواة الحديث –: " قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوما فينا خطيبا
بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به "، فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: " وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي " (٢).
وفي صحيح الترمذي ومستدرك الحاكم – وصححه –: " إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفونني فيهما " (٣).

---

(١) ولسنا الآن بصدد التعرض للنص الذي يعلن مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) السياسية – أعني نص الغدير – أجل فلندع أمر الخلافة قليلا ولنرى الآن أمر ديننا فمن أين نأخذه؟
(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (عليه السلام).
(٣) " صحيح الترمذي " ج ٥ كتاب المناقب ٦٦٣ / ٣٧٨٨، " المستدرك " ٣ / ١٤٨.

ولقد روى هذا الحديث عن النبي خمسة وثلاثون صحابيا (١)، وصححه كثير من علماء الحديث، منهم: الحاكم في المستدرك، الذهبي في تلخيص المستدرك، الهيثمي في مجمع الزوائد، وابن كثير في تاريخه، والسيوطي في الجامع الصغير (٢)، وابن تيمية ذكره في منهاج السنة عدة مرات، وصححه من المعاصرين الألباني المحدث السلفي (٣)، والمحدث الأشعري الحسن السقاف (٤).

وبالرغم من أن الحديث صريح في وجوب اتباع الثقلين معا الكتاب وأهل البيت (عليهم السلام)، إلا أن البعض - كابن تيمية - شكك فيه وعندما اصطدم برواية مسلم قال:

" الحديث الذي في مسلم إذا كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قاله!! فليس فيه إلا الوصية باتباع الكتاب، وهو لم يأمر باتباع العترة، ولكن قال: " أذكركم الله في أهل بيتي " (٥).

ومن الطبيعي إن الذي يعتصر مخيلته ليصرف أحاديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في أهل بيته (عليهم السلام) عن معانيها يقع في هذه المطبات، فإذا كان الأمر مجرد تذكير،

فلماذا يقرنهم بالقرآن فيقول: " إني تارك فيكم الثقلين " و " لن يفترقا "

---

(١) وكل رواياتهم من طرق أهل السنة فراجعها في: " عبقات الأنوار " ج ١ و ج ٢ و " ملحق المراجعات " ٣٢٧.

(٢) راجع: " حديث الثقلين: تواتره - فقهه " لعلي الحسيني الميلاني.

(٣) صحيح الجامع الصغير " ٢ / ٢١٧، رقم ٢٤٥٤.

(٤) " صحيح صفة صلاة النبي ٢٨٩.

(٥) منهاج السنة " ٤ / ٨٥.

و " حتى يردا ".
وقد أسعفنا الألباني برواية صححها، ترد على ابن تيمية وكل من كرر كلامه، فعن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): " إني تارك فيكم
الخليفتين من بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض " (١).
أما حديث " كتاب الله وسنتي " فهو غير صحيح، فقد قال فيه أحمد سعد حمدون: " سنده ضعيف " فيه " صالح بن موسى الطلحي "، قال فيه الذهبي: ضعيف، وقال يحيى: ليس بشئ ولا يكتب حديثه، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي: متروك " (٢).
وذهب الحسن السقاف – وهو المحدث الخبير – إلى أن لفظ " وسنتي " موضوع (٣).
أما في مصادر الحديث، فقد ورد في موطأ مالك بدون سند (٤)، ورواه الحاكم في مستدركه (٥) بسندين أحدهما فيه ابن أبي أويس وهو ضعيف (٦) والآخر فيه صالح بن موسى الطلحي وهو مجروح (٧).

---

(١) " السنة " لابن أبي عاصم ٣٣٧، رقم الحديث ٧٥٤، " مسند أحمد " ٥ / ١٨٢.
(٢) " شرح أصول اعتقاد أهل السنة " لأبي القاسم اللالكائي السلفي ٨، تخريج أحمد سعد حمدون.
(٣) راجع كلامه في " صحيح صفة صلاة النبي " ٢٨٩ – ٢٩٤.
(٤) " الموطأ " كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر.
(٥) " مستدرك الحاكم " ١ / ٩٣
(٦) راجع ترجمته في: " تهذيب التهذيب " ١ / ٢٧١.
(٧) راجع ترجمته في " تهذيب الكمال " ١٣ / ٩٦، و " تهذيب التهذيب " ٤ / ٣٥٥.

ورواه البيهقي (١) بإسنادين، واحد: فيه ابن أبي أويس، والثاني: فيه صالح بن موسى الطلحي، وقد عرفت حالهما، ووصل ابن عبد البر في التمهيد (٢) حديث الموطأ من حديث كثير بن عبد الله وهو مجمع على ضعفه فلا يحتج بحديثه.

وهكذا اتضح الحق مبينا لكل ذي بصيرة لم ينخرها العناد بالفساد.

حديث السفينة

ونصه: " مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك ".

روى هذا الحديث ثمانية من الصحابة، وصححه كل من: الحاكم في مستدركه، والسيوطي في نهاية الإفصال في تشريف الآل (٣)، والطيبي في شرح المشكاة، وابن حجر الشافعي حيث قال: " جاء من طرق عديدة يقوي بعضها بعضا... " (٤) الحديث.

وصححه محمد بن يوسف المالكي المعروف بالكافي حيث قال بعد كلام له: " ويدلك على ذلك: الحديث المشهور المتفق على نقله: مثل أهل بيتي

---

(١) " السنن الكبرى " ١٠ / ١١٤.
(٢) " التمهيد " ٢٤ / ٣٣١.
(٣) " خلاصة عبقات الأنوار " ٤٣.
(٤) " الصواعق المحرقة " ١٥٠.

مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق " (١).
وقد روى هذا الحديث حتى القرن الرابع عشر أكثر من مائة وخمسين عالما من علماء أهل السنة (٢).
ودلالة الحديث لا تخفى على أحد في وجوب اتباع أهل البيت (عليهم السلام) لتحصيل النجاة.
حديث الأمان
قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): " النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس " (٣).
وهذا الحديث صريح في أن أهل البيت (عليهم السلام) أمان الأمة من الاختلاف.
نصوص قرآنية
قال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) (٤).

---

(١) راجع " خلاصة العبقات " ٢٤٧.
(٢) فراجع " مستدرك الحاكم " ٣ / ١٥٠، " المعجم الكبير " للطبراني ١٣٠، " مجمع الزوائد " للهيثمي... أنظر " وركبت السفينة " ٤٠٧.
(٣) " مستدرك الحاكم " ٣ / ١٤٩ قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، " الصواعق المحرقة " ٩١ و ١٤٠ وصححه، " مجمع الزوائد " ٩ / ١٤٧.
(٤) آل عمران: ١٠٢.

وحبل الله فسرته الروايات بآل البيت (عليهم السلام) (١).
وقد أمر الله الأمة بسؤال أهل الذكر، قال تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (٢) وهم آل البيت (عليهم السلام) (٣).
وهم الصادقون الذين أمرنا الله بأن نكون معهم: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) (٤) (٥).
وقد وصف الله اتباع هذا الخط بخير البرية فحينما نزل قول الله تعالى: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) (٦) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): " يا علي هم أنت وشيعتك " (٧).

---

(١) " روح المعاني " للآلوسي ٤ / ١٦، " الصواعق المحرقة " ١٤٩.
(٢) النحل: ٤٣.
(٣) راجع: " تفسير الطبري " ١٤ / ١٠٩، " تفسير ابن كثير " ٢ / ٥٩١ - ٥٩٢، " تفسير القرطبي " ١١ / ٢٧٢...
(٤) التوبة: ١١٩.
(٥) راجع " الدر المنثور " ٣ / ٢٩٠، " فتح القدير " للشوكاني ٢ / ٢٩٥، " روح المعاني " ١١ / ٤١، " تذكرة الخواص " ١٠.
(٦) البينة: ٧.
(٧) " تفسير الطبري " ٣ / ١٤٦، " فتح القدير " ٥ / ٤٧٧، " الدر المنثور " ٦ / ٣٧٩، " روح المعاني " ٣٠ / ٢٠٧، " الصواعق المحرقة " ٩٦...

مقارنة بين النظريتين:
سبق لنا إثبات بطلان النظرية الأولى التي تزعم بترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للقرآن
محفوظا في صدور الصحابة وفي بعض الصحف، ونهيه عن تدوين السنة، أو قل تركها بلا جمع، لمن يذهب إلى أن حديث النهي قد نسخ.
فلا يمكننا أن نتصور صدور هذا من نبي الله، لأننا نروي عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال:
تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك " (١).
ونفهم من هذا النص أن المحجة البيضاء كانت موجودة بالفعل وقت قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لهذا النص، قبل أن يشير عمر على أبي بكر بجمع القرآن، وقبل
أن يأمر عمر بن عبد العزيز ابن حزم بجمع الحديث.
والمحجة البيضاء التي تركهم (صلى الله عليه وآله وسلم) عليها هي اتباع آل البيت (عليهم السلام) وأخذ
الإسلام منهم، لأنهم أعرف من غيرهم بالكتاب والسنة.
ولو دققنا النظر في قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): " تركتكم على المحجة البيضاء... "
وقوله: " تركت فيكم... كتاب الله وعترتي " تتضح ملاحظة التوافق بينهما، وأن حديث الثقلين يبين المقصود بالمحجة البيضاء، ففي كلا الحديثين يقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): " تركت... ".

---

(١) " مسند أحمد " ٤ / ١٢٦.

ويستحيل أن يترك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الناس على طريقين مختلفين، فالمحجة
البيضاء هي اتباع الكتاب والعترة!
وانظر إلى آخر حديث المحجة: " لا يزيغ عنها إلا هالك " وآخر حديث
السفينة: " ومن تخلف عنها هلك "، فكلمتي " هالك " و " هلك " في
الحديثين تبينان المقصود بالمحجة البيضاء، وهي ركوب سفينة آل البيت (عليهم السلام)
والنجاة بهديهم من مهلكة الضلالة، فمن لم يسر على المحجة البيضاء هالك كما
أن من عدل عن سفينة آل محمد هلك!
والرواية التالية تلقي مزيدا من الضوء على المحجة البيضاء:
عن جابر قال: خط لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خطا فقال: " هذا سبيل " ثم
خط خططا فقال: " هذه سبل الشيطان فما منها سبيل إلا عليها شيطان يدعو
الناس إليه، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك
فيكم الثقلين: أولهما كتاب الله عز وجل فيه الهدى والنور من استمسك به
وأخذ به كان على الهدى ومن تركه وأخطأه كان على الضلالة، وأهل بيتي
أذكركم الله عز وجل في أهل بيتي، (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا
تفرقوا) " (١).
ولو قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث المحجة مع عدم جمعه للكتاب والسنة وعدم
إرجاع الناس إلى شخص ينطق بحكم الله الواقعي لكان - حاشاه - كحال

---

(١) قال أحمد سعد حمدان: رواه أحمد ١ / ٨٧، " الفتح الرباني "، والمروزي في " السنة " ٦، ورواه ابن ماجة موجزا وابن أبي عاصم في " السنة " موجزا - ١٦، وصحح الألباني هذا الحديث، فراجع " شرح أصول اعتقاد أهل السنة " لأبي القاسم الطبري، تحقيق أحمد سعد حمدان.

أستاذ قال لتلاميذه – بعد أن أطفأ أنوار غرفة الدرس وتركها مظلمة – سأترككم في هذه الغرفة التي ظلامها كنورها ومن يرسب في الامتحان فهو هالك!

كيف سيجيب هؤلاء التلاميذ على أسئلة الامتحان وهم لا يرون أكفهم؟ ونحن مسلمي هذا القرن، كيف سنصلي، نصوم، نحج... مع عدم وجود دليل لنا؟

لقد جعل الله للانسان الحاجب والرموش لحماية عينيه وهذه من الأمور البسيطة جدا إذا ما قيست بضرورة وجود حجة لله سبحانه على خلقه يبين لهم تعاليم الإسلام، فهل يعقل أن يجعل الله لنا حاجبا ورموشا لحفظ عيوننا، ولا يضع لنا دليلا على دينه!

ولذلك لا نجد مصداقا لقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): " تركتكم على المحجة البيضاء... " إلا في مدرسة آل البيت (عليهم السلام).

فالكتاب والسنة مدونان، ويتجسدان في سلوك أئمة آل البيت (عليهم السلام) وأقوالهم، والإسلام حي يمارس عمليا أمام الناس، فيكون أدعى للفهم والقبول لوجود الشخصية الإسلامية النموذجية الماثلة أمامهم في الحياة اليومية.

وبهذا يعرف الناس الإسلام من هؤلاء الأئمة (عليهم السلام)، بدلا من النظر في كتب الحديث والرجال والأصول... وبدلا من أن يدب الخلاف بين أبناء الإسلام ويكفر بعضهم بعضا، وقد يقتتلون.

فترى فقيها يقول: الحكم في هذه المسألة كذا والدليل هذه الآية، وآخر يقول: بل الحكم كذا والآية نفسها تؤيدني، حتى أن الخلاف وصل بين فقهاء

السنة إلى وحدة الأصول الفقهية وأصالتها، فهذا يقول بحجية القياس، وأهل الظاهر أنكروه، وأجاز مالك بن أنس الاستحسان، وقال الشافعي: " من استحسن فقد شرع "...، حتى جعلوا الإسلام حيص بيص، فكل واحد في جهة، ويقول دليلي من الكتاب والسنة.

فبدلا من هذا كله، ومن أن يصبح الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين – والذي يعبر عن حكم واقعي واحد – مذاهب وأحزابا، يعادي بعضها البعض.. هنالك مراجع جعلهم الله تعالى حججا على خلقه، أئمة هداة، لا يصعب علينا أن نأخذ الإسلام صافيا منهم، دون الخوض في الكتب المختلفة، وبعيدا عن هذه التعقيدات التي توهن المسلمين وترجعهم إلى الوراء.

يقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف: " مما لا يعرف فيه خلاف بين جمهور المسلمين، أن الله سبحانه لم يترك الناس سدى، وأن له حكما في كل ما يحدث للمسلم من الوقائع، غير أنه سبحانه لحكمة بالغة لم ينص على كل أحكامه في مواد قانونية جامعة " (١).

لا ندري كيف اتفقت كلمة جمهور المسلمين على عدم ترك الله عباده سدى، مع ما هو موجود عندهم من ترك الله لكتابه مفرقا، ونهيه عن تدوين السنة على لسان نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعدم وضعه مرجعية تزود الناس

بحاجاتهم المستجدة؟!

والعجيب قوله: " أنه سبحانه لحكمة بالغة لم ينص على كل أحكامه في مواد قانونية جامعة "!

---

(١) " مصادر التشريع فيما لا نص فيه " ٨.

فهل الحكمة في أن ينص الله على كل أحكامه، ليطمئن المسلم إلى حكم الله، وتستقيم تربيته التشريعية؟ أم الحكمة في ترك أحكامه للاجتهاد المبني على الظن، الذي يؤدي إلى تعدد الآراء والمذاهب والقتال والتكفير فيما بين اتباعها؟!

نعم هذه هي الحكمة التي أشار إليها الأستاذ خلاف، ولا يوجد غيرها وقد عاشها المسلمون، وما زالوا يعيشونها من تكفير لبعضهم البعض، وأنا أجزم أن انقسام هذه الأمة إلى فرق ومذاهب لم يحدث إلا بسبب إقصاء النخبة التي تمثل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن مواقعهم التي خصهم الله سبحانه بها، فلو بقي

النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيا إلى يوم القيامة مع طاعة الناس له لما حدث أي انقسام أو

خلاف بينهم، وهكذا لو أطاع الناس خلفاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من آل بيته (عليهم السلام) لما

تمزقت أمته (صلى الله عليه وآله وسلم) شيعا متنافرة في دينه الذي جاء ليؤلف بين قلوب الناس

وليس لتشتيتهم.

أتى رجل من أهل الشام ليناظر الإمام الصادق (عليه السلام) (١)

وأصحابه، فتصدى له هشام بن الحكم (٢) فقال له: " يا هذا أربك أنظر لخلقه أم خلقه لأنفسهم؟

فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه.

قال: ففعل بنظره لهم ماذا؟

قال: أقام لهم دليلا كي لا يتشتتوا أو يختلفوا، يتألفهم ويقيم أودهم ويخبرهم بفرض ربهم.

---

(١) هو الإمام السادس من أئمة آل البيت الاثني عشر (عليهم السلام)، وهو أستاذ أبي حنيفة رغم أنه يصغره بسنتين، أنظر كتابنا " وركبت السفينة " ٥٥٤ - ٥٦٤.

(٢) أحد أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) المقربين، وقد نسبت إليه كثير من الاتهامات الباطلة.

قال: فمن هو؟
قال: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).
فقال هشام: فبعد رسول الله؟
قال: الكتاب والسنة.
قال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة في رفع الاختلاف عنا؟
قال الشامي: نعم.
قال: فلم اختلفنا أنا وأنت وصرت إلينا من الشام في مخالفتنا إياك؟
فسكت الشامي.
فقال أبو عبد الله (عليه السلام): مالك لا تتكلم؟
قال الشامي: إن قلت: لم نختلف كذبت، وإن قلت: إن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت لأنهما يحتملان الوجوه، وإن قلت: قد اختلفنا وكل واحد منا يدعي الحق فلم ينفعنا إذن الكتاب والسنة، إلا أن لي على هذا حجة.
فقال أبو عبد الله (عليه السلام): سله تجده مليا.
فقال الشامي: يا هذا من أنظر للخلق أربهم أم أنفسهم؟
فقال هشام: ربهم أنظر لهم منهم لأنفسهم.
فقال الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويقيم أودهم ويخبرهم بحقهم من باطلهم؟
قال هشام: نعم.
قال الشامي: من هو؟

قال هشام: أما في ابتداء الشريعة فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأما بعد النبي
فعترته... " (١).
وقال هشام بن الحكم لأحد خصومه الذين ينكرون وجود مبين للإسلام:
" أتقول أن الله عدل لا يجور؟
قال: نعم هو عدل لا يجور.
قال هشام: فلو كلف الله المقعد المشي إلى المساجد والجهاد في سبيل الله، وكلف الأعمى قراءة المصحف والكتب، أتراه كان عادلا؟
قال: ما كان الله ليفعل ذلك.
قال هشام: علمت أن الله لا يفعل ذلك، ولكن على سبيل الجدل والخصومة أن لو فعل ذلك أليس كان في فعله جائرا إذا كان تكليفا لا يكون السبيل إلى إقامته وإقامة أدامه؟
قال: لو فعل ذلك لكان جائرا.
قال هشام: فأخبرني عن الله عز وجل كلف العباد دينا واحدا لا اختلاف فيه، ولم يقبل إلا أن يأتوا به كما كلفهم؟ فجعل لهم دليلا على وجود ذلك الدين؟ أو كلفهم ما لا دليل لهم على وجوده، فيكون بمنزلة من كلف الأعمى قراءة المصحف والكتب والمقعد المشي إلى الجهاد والمساجد؟
فسكت خصمه ساعة ثم قال: لا بد من دليل، وليس بصاحبك.
فتبسم هشام وقال: تشيع شطرك وصرت إلى الحق ضرورة، ولا

---

(١) " الاحتجاج " ٢ / ٢٧٧ - ٢٨١.

خلاف بيني وبينك إلا في التسمية " (١).
نعم لقد أخبر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بافتراق أمته ثلاثا وسبعين فرقة، واحدة
منها في الجنة، فهل كان يعلم هذا ولا يضع دليلا على دين الله الصحيح؟
إن قيل: الكتاب والسنة هما الدليل.
قلنا: الكتاب والسنة مدعاة للاختلاف لاختلاف العقول في فهمهما،
ونحن نريد المقصود الشرعي، وهو واحد لا يتعدد، إضافة إلى أن
الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ربط بين الكتاب وآل بيته (عليهم السلام) ولذلك يلزمنا الجمع بينهما.
وإن قيل: الأشعري والمذاهب الأربعة.
قلنا: وأي عقيدة للأشعري تقصدون؟ أعقيدة المعتزلة أم
الأشاعرة أم أهل الحديث؟ ولا أحد من الأئمة الأربعة كان قد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسمع منه،
وقد نهوا الناس عن تقليدهم (٢)!
لم يدع من أموره أولاها
قد علمتم أن النبي حكيم ترجع الناس في اختلاف نهاها
كيف تخلو من حجة وإلى من إن ترك الأمة دون مبين للشرع، يدل على قصور النظام الاسلامي،
فالفقهاء كانوا يطرحون مسائل لم تقع، ويجتهدون في معرفة أحكامها،
واشتهر الفقه الحنفي بالفقه الافتراضي، فهل هؤلاء الفقهاء أكمل وأبعد نظرا من التشريع الإلهي؟!
يقول الإمام علي (عليه السلام): " اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة إما

---

(١) " الكشكول " ليوسف البحراني.
(٢) وهذا أثبتناه فراجع " وركبت السفينة " ٢٩ - ٣٦ و " نحو الإسلام الأصيل " للمؤلف.

ظاهرا مشهورا أو خائفا مستورا لئلا تبطل حجج الله وبيناته " (١).
قال هشام بن الحكم لأحد العلماء الذين ينكرون وجود الإمام:
" ألك عين؟
قال: يا بني أي شئ هذا السؤال؟
فقال: هذه مسألتي
قال: سل وإن كانت مسألتك حمقاء.
قال: أجبني فيها.
فقال: سل.
فقال: ألك عين؟
قال: نعم.
قال: فما تصنع بها؟
قال: أرى الألوان والأشخاص.
قال: ألك أنف؟
قال: نعم.
قال: فما تصنع به؟
قال: أشم به الرائحة.
قال: ألك لسان؟
قال: نعم.

---

(١) " ينابيع المودة " في الباب المائة ٥٢٣، " إحياء علوم الدين " ١ / ٥٤، " حلية الأولياء " بإيجاز ١ / ٨، وقريب منه في " مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب " ٣ / ٣٢ نقلا عن " إعلام الموقعين " لابن القيم.

قال: فما تصنع به؟
قال أتكلم به.
قال: ألك أذن؟
قال: نعم.
قال: ما تصنع بها؟
قال: أسمع بها الأصوات.
قال: ألك يدان؟
قال: نعم.
قال: فما تصنع بهما؟
قال: أبطش بهما وأعرف اللين من الخشن.
قال: ألك رجلان؟
قال: نعم.
قال: فما تصنع بهما؟
قال أنتقل بهما من مكان إلى مكان.
قال: ألك فم؟
قال: نعم.
قال: فما تصنع به؟
قال: أعرف به المطاعم والمشارب على اختلافها.
قال: ألك قلب؟
قال: نعم.
قال: فما تصنع به؟

فقال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح.
قال: أفليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟
قال: لا.
قال: وكيف ذاك وهي صحيحة سليمة؟
قال: يا بني إن الجوارح إذا شكت في شئ شمته أو رأته أو ذاقته ردته إلى القلب فيتيقن بها اليقين ويبطل الشك.
قال: فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح؟
قال: نعم.
قال: إن الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماما يصحح لها الصحيح وينفي ما شكت فيه، ويترك هذا الخلق كله في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إماما يردون إليه شكهم ويقيم لك إماما لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك... (١)؟!! ".

---

(١) " الأصول من الكافي " ١ / ١٦٩ - ١٧١.

النتيجة:
إن الله لم يقبض نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى أكمل على يديه الدين وأتم النعمة وذلك
بجعل آل البيت (عليهم السلام) خلفاء للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في القيادة والتبليغ، فكما يختار الله
الأنبياء كذلك يختار أوصياءهم، وكما يحتاج الناس للنبي، يحتاجون للإمام،
ولا يعقل أن يترك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دينه دون مرجع يبينه للناس، فها هو
يستخلف عليا (عليه السلام) على أمانات خاصة (١)، فهل كانت هذه الأمانات أعظم من
الأمانة الإلهية حتى يتركها دون وصي، ويضع وصيا على أمانات دنيوية؟!
بعد الذي قدمنا هل يبقى شك في أحقية مدرسة آل البيت (عليهم السلام) بالإمامة وقيادة الأمة الإسلامية إلى طريق الله سبحانه؟
المدرسة السنية تقول: إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أهمل أمر المرجعية بعده فلم يجعل
للأجيال إلا قرآنا مفرقا في الصحف والصدور.
والمدرسة الشيعية تقول بجمع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للقرآن والسنة، وأقام بأمر الله
تعالى الأئمة الأطهار ترجمانا لهما.
إن من يقف متأملا بين النظريتين السابقتين لمستقبل الدعوة، فإنه

---

(١) قبل موته الشريف كان قد أوصى (صلى الله عليه وآله وسلم) عليا (عليه السلام) بأن يسلم بعض الأمانات
لأصحابها.

سيهتدي إلى الحقيقة:
فالنظرية الأولى ترى أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعد ثلاث وعشرين سنة من الجهاد وتحمل الأذى والصعاب لنشر دينه، ترك معجزته الخالدة مفرقة، ونهى عن تدوين سنته المبينة للقرآن، والتي لا يستغنى عنها، وهو يعلم بحاجة الناس إليها، ولم يشر للمستجدات وكيفية التعامل معها...
هذا ما وجدته في النظرية الأولى، وأي منصف يتأملها جيدا سيجد نفس الشئ، وأي محاولة تبريرية لهذه الحقيقة فهي فاشلة، وتغطية على الواقع.
هذا من جانب، ومن جانب آخر لا نرى على المدرسة الشيعية أي مؤاخذة في حق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو ذلك القائد البصير الذي نظر للأمد البعيد
فلم يترك الأمر بعده مهملا فارغا بل رتبه أروع ترتيب، فالكتاب والسنة مدونان، ولحسم الخلاف في فهمهما جعل ناطقا عنهما لا يخلو منه زمن.
إن الفكر الذي يقدم هذه الأطروحات لصيانة الإسلام من التحريف وإدامته، لهو فكر عظيم، فلا يمتلك المرء إلا أن ينحني أمامه، وبهذا التصور نرى المفارقة العجيبة بين النظريتين.
والضد يظهر حسنه الضد!
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل اللهم على محمد وآله الطاهرين